مكان اللغة العربية ومكانتها والتحديات التى تواجهها فى إفريقية : نظرة استراتيجية

د. محمد عبد الغنى سعودى *

يرى الباحثون أن وحدة اللغة عنصر مهم من عناصر الوحدة القومية، وأنها أكبر عامل يولد فى نفوس الناس إرادة الانتظام فى أمة واحدة، وإذا كان الإنسان يتميز عن الحيوان بأنه مدنى (اجتماعى) وأنه ناطق (مفكر)، فإن الشعوب تتميز بعضها عن بعض بأن لكل منها لغة خاصة تتكلم بها، فمما لا شك فيه أن اللغة هى أقوى رباط معنوى بين الأفراد، وكما قالوا فاللغة أصوات يعبر عنها كل قوم عن أغراضهم، ومعنى هذا أن لكل قوم لغتهم. ومتى تفاهم الأفراد بلغة واحدة تقارب تفكيرهم، ونشأ فيهم شعور بالتعاطف، فلما ينشأ مثله بين أفراد يتكلمون لغات مختلفة، وهذا التعاطف أمل عظيم فى جعل المتكلمين لغة واحدة يؤلفون أمة واحدة. ولما كانت اللغة عماد الثقافة للأمة، والثقافة بالنسبة للأمة هى بمثابة الروح بالنسبة للإنسان، يذهب البعض إلى أن الأمة ليست ملايين من البشر، يعيشون على الأرض نفسها، أو يرجعون إلى أصل واحد فحسب، بل الأمة أيضاً وحدة من الفكر والشعور والإرادة والعمل. ومن أجل المشاركة فى الفكر والشعور والإرادة والعمل، لابد أن يكون هناك اتصال بين أعضاء الجماعة القومية، ومن ثم كان للغة المشتركة أهميتها وأثرها بوصفها أداة فعالة فى تشكيل الوحدة القومية.

---

* أستاذ غير متفرغ وعميد أسبق لمعهد البحوث والدراسات الإفريقية بجامعة القاهرة.

ولا يختلف اثنان فى أن تاريخ إفريقية الثقافى هو نتاج إرث ثلاثـــى: التراث الأفريقى، والتراث السامى، والتراث اليونانى الرومانى أو الغربـــى، ومن الناحية اللغوية، إذا بدأنا بالتراث الأفريقى، نجده يتمثـــل فـــى اللغـــات الأفريقية، ويتمثل التراث السامى فى اللغات الســـامية وأهمـــها هنـــا اللغـــة العربية، ويتمثل التراث الغربى فى اللغات الأوربية.

غير أننا قبل أن نتوغل فى موضوع التراث الثقافى واللغـــوى للقـــارة ومكانة اللغة العربية فى هذا المجال لابد من ملاحظات عامة.

عموميات :

يقع الكثيرون فى خطأ بالنسبة للقبيلة واللغة فى أفريقية، فلفظ القبيلـــة يُطْـــلَق أحيانا على جماعات لا يتعدى عددها المئات، ويطلق أحياناً أخـــرى على شعب يعد بالملايين كالزولو فى جنوب إفريقية، أو اليوروبا فى نيجيريا، أو الكيكويو فى كينيا، ولما اختلط الأمر على الباحثين الأنثروبولوجيين وجدوا أن الاعتماد على اللغة التى تتكلمها الجماعة قد يكون أكثر توفيقاً مـــن لفـــظ قبيلة، وناس إفريقية كبقية الناس يميزون أنفسهم من خلال اللغات الوطنية أو الأصلية، ومن ثم فخريطة اللغات هى خريطة ما يعرف بخريطة القبائل.

تضم القارة أحدث اللغات التى تقوم على أبجدية مكتوبة وقواعد نحـــو وصرف، ولها آدابها، ولكنها تضم فى الوقت نفسه أقدم لغات العالم قاطبـــة، وهى لغات ليس لها أبجدية فحسب، بل هى لغة إشارات أو ما يطلق عليـــها لغة الطقات **Clicks**، وهى التى تعتمد على حركة اللسان مع سقف الحلـــق لا على زفير الصدر، وهى عند البوشمن والهوتنتوت فى ناميبيا وهم ما يطلـــق عليهم الخوسيان **Khosian**؛ أى لغة الإشارات، ومن ثم يصعب كتابتـــها، ولا

ننسى فى هذا المجال أن الإشارات هى لغة الطبول التى استخدمت فى الاتصال لمسافات بعيدة فى أجزاء كبيرة من القارة، والتى يفهمها المتلقى وكأنها رسالة مكتوبة.

وتضم إفريقية من اللغات بالنسبة للسكان أكثر مما تضم أى قارة أخرى، وعدد هذه اللغات غير مؤكد تماماً لأن كثيراً من اللهجات واللغات لم تدرس دراسة كافية. وليس من شك فى أن هناك فارقاً بين اللغة واللهجة **Dialect** والنبرة **Accent**؛ [1] فاللغة وسيلة تفاهم لها قواعد إملاء ونحو وصرف، أما اللهجة فهى وسيلة تفاهم تفتقر إلى قواعد النحو والصرف ويصحبها تحوير أو تغيير إقليمى، ومن ثم لا توجد لغات بدون لهجات، وكل لغات العالم بها لهجات متعددة باختلاف الأقاليم، وإذا تقدمت إحدى اللهجات المحلية على غيرها، أصبحت المعبر عن تلك اللغة، وتنزل اللهجات الأخرى إلى درجة اللهجات المحلية (لهجة باريس تقدمت على كل لهجات الفرنسية، فأصبحت هى اللغة الفرنسية، وتحولت الوالون فى بلجيكا واللورين فى شرقى فرنسا إلى لهجات فرنسية).

أما النبرة **Accent** فيتعلق بالنطق **Pronunciation** [2] أى تلفظ الكلمة بجرس مختلف (نبرة أهل إسكندرية شربات ــ الأربعاء ــ السودانيون ــ البتيخ) وعلى العموم فإن من الأمور الشديدة الصعوبة عند علماء اللغات وضع خط فاصل مقنع بين اللهجات واللغات.

إن عددا كبيراً منها يتكلمه عدد قليل من السكان؛ إذ إن خُمس هذه اللغات يعد لغات مليونية، وفى الوقت نفسه هناك أكثر من مائتى لغة يتكلم كلا منها أقل من ٥٠٠ نسمة، مثل الكوادزا فى تنزانيا، ولما كانت اللغات

التى يتكلمها أقل من مائة ألف نسمة عرضة للانقراض، فهذه المجموعة التى ذكرناها فى طريقها إلى الاختفاء [٣].

يقال عن اللغات الإفريقية إنها لغات بسيطة، على أساس أن الثقافات الأولية بمستواها التقنى البسيط لا تتطلب تعقيداً، ولكن الحقيقة أنه لا توجد علاقة بين المستوى التقنى للسكان وتراكيب ثقافتهم، فقواعد النحو فى اللغات القديمة فى أوربا كاليونانية واللاتينية، فضلاً عن الروسية الحديثة أكثر تعقيداً من نظيرتها فى الإنجليزية والفرنسية، بل إنه فى وسط إفريقية توجد أبسط لغات العالم ممثلة فى نجباكا Ngbaka إلى جانب بعض من أكثر اللغات تعقيداً ممثلة فى الرواندية [٤].

إن اللغات الإفريقية شفهية بالدرجة الأولى، وقليل منها كتب بالحرف العربى (السواحيلى ــ الهوسا ــ الصومالية)، ثم كتب بالحرف اللاتينى فى عهد الاستعمار؛ الذى تعدى هذه اللغات إلى اللغات المحلية أيضاً.

وإذا كانت اللغات الإفريقية لا تنقصها إلا الكتابة، فهذا لا يعنى انعدام الأصوات، وإمكان التقعيد، لأن القاعدة ــ أية قاعدة ــ ليست إلا تأليفاً نظرياً للاستعمال الشائع والمتفق عليه، ومن ثم كان ميدان اللغات الإفريقية من الميادين التى تستدعى النقاش الكثير من جانب المتخصصين فى اللغات المقارنة Comparative Linguistics.

ويذهب علماء اللغات إلى أن إفريقية غابة من اللغات بصفة عامة، وقد أشار إلى هذه الحقيقة كل من باسكوم وهرسكوفيت حين قالا إن "إفريقية تعد من الناحية اللغوية" من أشد المناطق تعقيداً فى العالم. وربما لا ينافسها فى ذلك سوى سكان أمريكا الجنوبية، ويقدر عدد اللغات فى إفريقية عادة

بثمانمائة لغة، فى حين تقدرها خريطة مدرسة اللغات الشرقية بجامعة لندن بنحو ١٥٠٠ لغة فضلاً عن اللغات الأوربية، غير أننا إذا ذكرنا أن هناك ألف لغة أو أكثر فى جنوب الصحراء فليس معنى هذا أن هناك ألف جزيرة لغوية كل منها منعزل عن الآخر، وأن أفراد هذه الجزر لا يستطيعون الاتصال بعضهم ببعض، ذلك أن ثنائية اللسان، بل وتعدده كان منتشراً إبان الفترة الاستعمارية، وربما زاد الآن، ويرجع هذا إلى الرغبة فى إيجاد نوع من الاتصال عبر الحواجز اللغوية، وإن كانت هناك رغبة فى إيجاد علاقات تجارية وغيرها" (٥).

وإذا نحينا جانبا اللغات السامية المنقرضة؛ وهى الأكادية، والعمورية، والموابية، والفينيقية، والعبرية القديمة (شكلها القديم احتفظ به اليهود بوصفها لغة مكتوبة للديانة اليهودية) والآرامية (لغة السيد المسيح)، والسريانية، سنجد أن اللغات السامية التى ظهرت فى إفريقية تتمثل فى الأمهرية والتيجرنية محدودتى الانتشار فى إثيوبيا، ولكن اللغة السامية التى تظهر بصورة أكبر وأضخم هى اللغة العربية التى تفترش مساحات واسعة فى النصف الشمالى من القارة، ولئن كانت العربية يتكلمها نحو ٢٧٥ مليون نسمة بعامة بوصفها اللغة الأم، فإن من يتكلمون بها فى إفريقية يتراوح عددهم بين ١٦٠ و ١٧٠ مليون نسمة، هذا غير بضعة ملايين يستخدمونها بوصفها لغة ثانية.

التوزيع الجغرافى
للغات الرائدة فى العالم

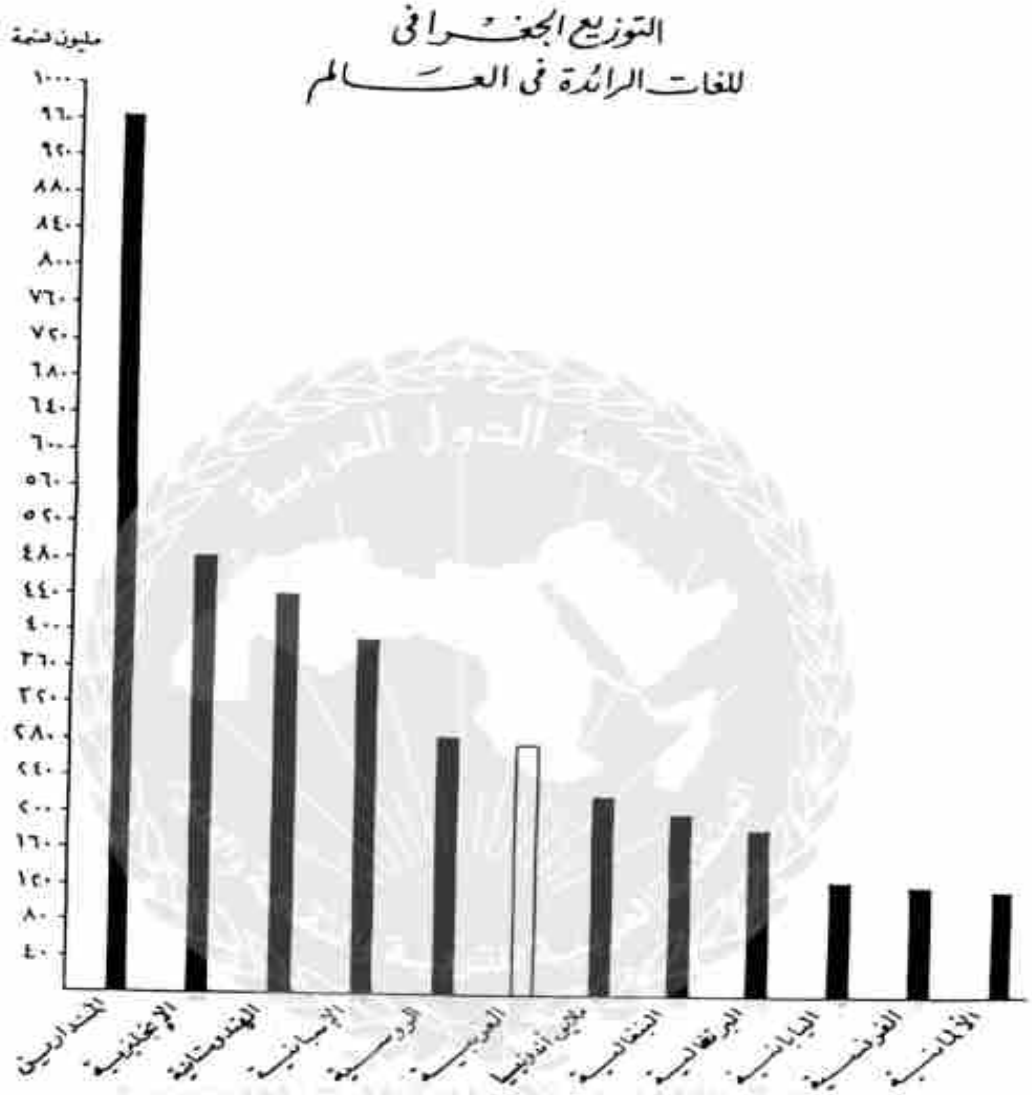

ويتضح تأثير اللغة العربية فى عدة مظاهر :

- التأثير البيولوچى، وذلك نتيجة تزاوج العرب بالأفارقة، وبذلك وُجد أفارقة جدد فى النصف الشمالى من إفريقية، ووادى النيل ودول المدن السواحيلية، وكان هذا من عوامل انتشار اللغة العربية.

- التأثير اللغوى، ويتمثل فى الغطاء اللغوى الذى حلت فيه بوجه خاص اللغة العربية محل اللغة الحامية، وكذلك التأثير فى اللغات الأفريقية الحديثة كالهوسا فى نيچيريا، ومما يسترعى النظر أن الفولانى أقرب إلى الساميين بيولوچيا، ولكن الهوسا أقرب إليهم لغة (التراكيب اللغوية ... إلخ).

- ثم إن هناك التأثير المباشر للغة العربية فى ظهور لغات جديدة، لعل أهمها الكيسواحيلى، فهى - لا شك - نتيجة التزاوج بين الثقافتين العربية والإفريقية، وإذا كنا نستعمل لفظ "حديث" هنا بالنسبة للسواحيلى، فليس معنى هذا أنها بنت هذا القرن أو القرن الماضى، بل يمكن تتبعها إلى خمس قرون خلت.

- وهناك أثر اللغة العربية المباشر فى لغات إفريقية ليست سامية، فتأثير اللغة العربية فى اللغة الصومالية واضح جداً، عل عكس الأمهرية فى إثيوبيا فهى من العائلة السامية أيضا، وهى أقرب جغرافيا، ومع ذلك فتأثير العربية فى الصومالية أكبر منها، فاللغة الصومالية لغة حامية تنتمى إليها لغة الجالا أوالأورمو وغيرها من اللغات التى تحيط بإثيوبيا شرقا، ومع ذلك تضم اللغة الصومالية الكثير من الألفاظ العربية تقدر بنحو ٢٠%، وهذه حقيقة يذكرها الأنثربولوچى البريطانى **I. M. Lewis**، وإن كنا لسنا فى حاجة إلى الاستشهاد به، لأن للعربية مكانا ومكانة خاصة بين الصوماليين يعبر عنها معظمهم، فحتى الصحف التى تصدر بلغات غير العربية تضم قسما منها باللغة العربية، وكانت تكتب بالحروف العربية، ولكن نجح الفريق الذى يعضد الكتابة بالحرف

اللاتينى، وأعلن هذا الاتجاه رسمياً عام ١٩٧٢ (٦).

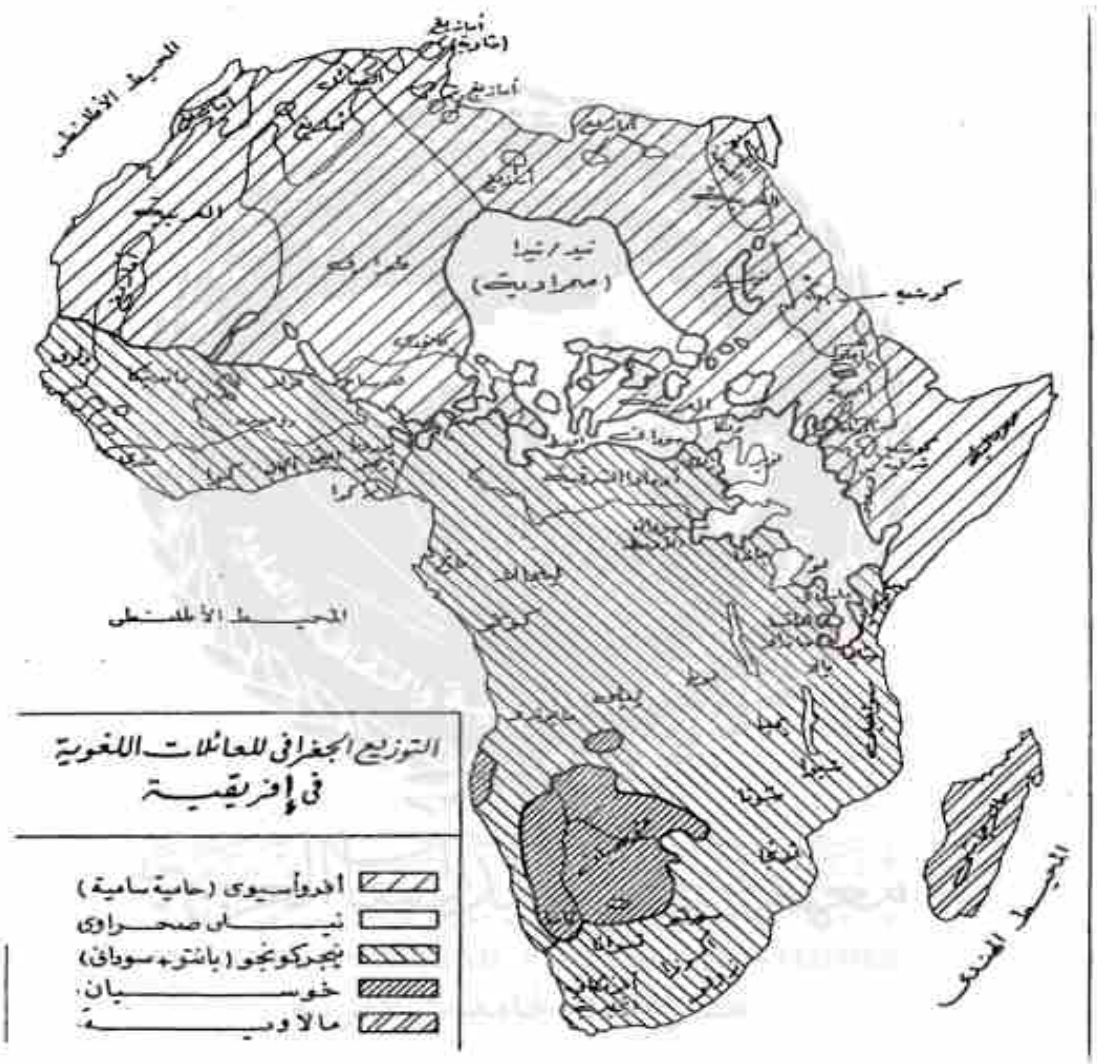

العائلات اللغوية

قلنا إن تاريخ إفريقية الثقافي واللغوى هو نتاج لإرث ثلاثى إفريقى، سامى، أوربى، فإذا ما شبهناه بالطبقات فى الچيولوچيا نجد لغات القاعدة Basement الإفريقية والتى قلنا إنها تتراوح بين ٨٠٠ و ٥٠٠ لغة، ثم الطبقة السامية ممثلة فى اللغة العربية باكتساح، وفى الأمهرية وأخواتها على استحياء، وفى اللغات الأوربية أخيراً، ويختلط هذا بذاك، فتظهر لغات التفاهم المشترك.

وكما فى الچيولوچيا ليس من اللازم أن تمتد الطبقة بكامل المساحة، كذلك فى هذه اللغات منها ما يفترش مساحات واسعة كهلال اللغة العربية الذى يمتد قوسه فى شمالى القارة ويمتد بجناحيه شرقا وغرباً، أو اللغات الأوربية التى تمثل بقعاً سواء على المستوى المساحى (المدن) أو على المستوى الاجتماعى (المتعلمون).

قسم العلماء اللغة الأفريقية إلى مجموعة من العائلات هى: [٧] النيجر كنغو، والأفرو آسيوية (وخاصة السامية)، والنيلى الصحراوى، وأخيراً – بأعداد قليلة – الخوسيان والمالاوية، وبالإضافة إلى هذه العائلات اللغوية التى ذكرناها وجدنا اللغات الأوربية التى وفدت مع الحركة الاستعمارية فى القرن التاسع عشر، ثم لغات التفاهم المشترك (انظر خريطة توزيع العائلات اللغوية والأشكال الخاصة بفروع هذه اللغات).

ولو نسبنا عدد اللغات الأفريقية إلى عدد السكان لكان متوسط قوة اللغة الواحدة هو نحو نصف مليون متكلم إن لم يكن أقل، وهذا وحده كفيل بأن يكون عقبة فى سبيل التماسك والترابط. ولكن لما كان هناك – لحسن

الحظ – لغات واسعة الانتشار كاللغة العربية، فإنه بالضرورة هناك لغات تقل كثيراً جداً عن هذه المتوسط النظرى.

تعدد اللغات داخل الدولة

عندما حصلت أوغندا على استقلالها كان راديو أوغندا يذيع بست لغات؛ هى الإنجليزية، واللوجاندا، والرونيورو، والأتيزو، واللو، والروتورو.

وفى مارس سنة ١٩٦٧ عندما افتتح الرئيس السباق لأوغندا ندوة عن وسائل الاتصال الجماهيرى فى شرقى إفريقية، ذكر فى خطبته الافتتاحية أنه أضيفت إلى اللغات السابقة عشر لغات أخرى ستذيع بها إذاعة أوغندا، ثم أضيفت عدة لغات أخرى فى سبتمبر سنة ١٩٦٩ ليصل الرقم إلى ثمانى عشرة لغة، وهذه اللغات هى :

الإنجليزية	English	لوسوجا	Lusoga
لوجاندا	Lugnyole	لوسامبا	Lusamaba
لانيولى	Lunyile	رونيورو	Runyoro
سيبى	Sebei	رانيان كورى	Runyan Kore
روتورو	Rutoro	لوو	Lou
روكيجا	Rukiga	كاراموچنج	Karamojong
الاتيزو	Ateso	كاكوا	Kakwa
مادى	Madi	اللور	Alur
لوجبارا	Lugbara	هندوستانى	Hindustani
كومانى	Comani		

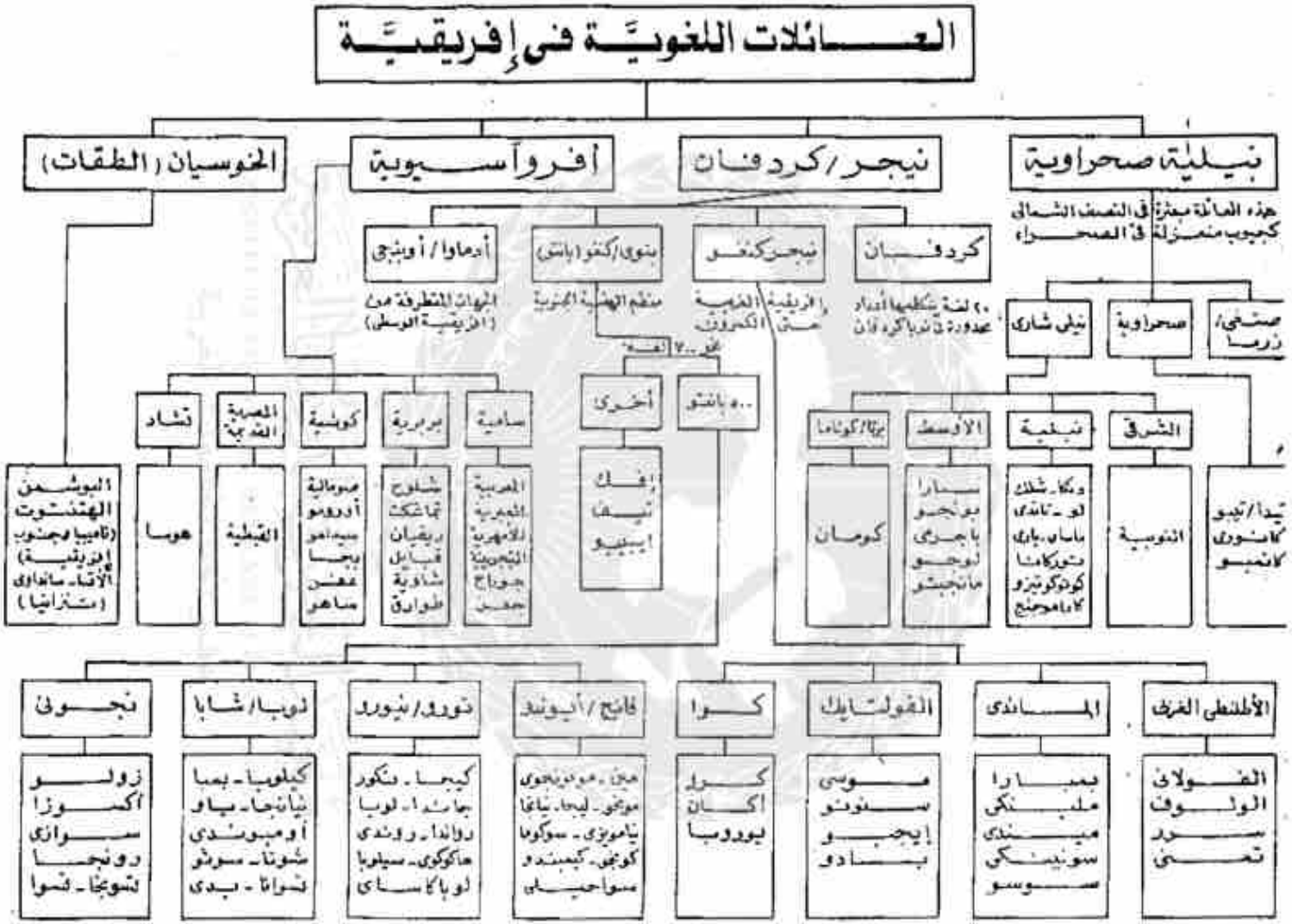
العائلات اللغوية فى إفريقية
نيلية صحراوية
هذه العائلة بمفردها فى النصف الشمالى كجيوب منعزلة فى الصحراء
نيجر / كردفان
أفروآسيوية
الخوسيان (الطقات)
كردفان
٢٠ لغة يتكلمها أعداد محدودة فى نوبا كردفان
نيجر كنغو
الغربية حتى الكمرون
بنوى / كنغو (باستو)
منطقة الهضبة الجنوبية
أدماوا / أوبنجى
البهان المتطرفة من (الزيقية الوسطى)
صحراوية
نيلى شارى
صحراوية
صحراوى / زرما
الشرق
الأوسط
برتا / كوناما
..و بانتو
أخرى
سامية
بربرية
كوشية
الصبية الشرقية
نشاد
اليوشمن الهتنتوت (ناميبيا جنوب إفريقية) الأقاسا ماداوى (مدغشقر)
هوسا
القبطية
الشلوح تماشك ريفيان قبايل شاوية طوارق
صومالية أورومو سيداموبجا عفر ساهو
المصرية المغربية الأمهرية التجرية جوراج حفر
إفك تيفا إيبيبيو
كوما
سارا بونجو باجرى لوجو مانجبتو
نيلية
دنكا - شلك لو - ناندى ماساى - بارى تورکانا كونكوتيزو كاماجنج
النوبية
تيدا / تيبو كانورى كانمبو
الأطلنطى الغربى
المساندى
الفولتايك
كوا
فانج / أيونيد
تورو / نيورد
نوبا / شابا
نجوني
الفولانى الولوف سرر تمنى
بمبارا ملينكى ميندى سونينكى سوسو
موسى سنوفو إيجبو بادو
كرو أكان يوروبا
هيج - مونزجوى موفو - ليجا - بياغا بامونزى - سوكوما كونجى - كيمبندو سواحيلى
كيجا - دنكور جامندا - لوبا رواندا - روندى هاكوكوى - سيلوبا لوباكاساى
كيلوبا - بمبا بيانجا - ياو أومبوندى شونا - سوتو تسوانا - بدى
زولو أكسوزا سوازى رونجا تسونجا - تسوا

التى كان يذاع بها فى ذلك الحين لم تكن ضرورية تماما، وأضاف:" ومع ذلك فلكونى فى مركز السلطة والحكم لابد لى من مراعاة الأحاسيس والمشاعر السياسية **Political feelings** للسكان ووضعها فى الحسبان عند تشكيل سياسة الدولة" (٨).

ولإعطاء أمثلة على هذا التعدد اللغوى داخل الدولة الواحدة أيضاً، نجد أن السنغال تضم عشر لغات، منها ٨ لغات رئيسية، والكمرون تضم ٢٠٠ لغة منها ٩ لغات رئيسية، وزائير تضم ٣٠٠ لغة منها ٥ لغات رئيسية، وزامبيا تضم ٧٣ لغة منها ٨ لغات رئيسية، ثم تأتى نيجيريا لتضم ٣٥٠ لغة منها ١١ لغة رئيسية.

هناك تأثير غير مباشر بين اللغات المختلفة، فكما أثرت الكيسواحيلى فى الشرق ، أثرت الهوسا فى كثير من اللغات المجاورة لها فى الغرب، ومن ثم هناك خطر من أن تعمل السواحيلية والهوسا على موت كثير من اللغات الأخرى الصغيرة الحجم.

دخلت العربية فى بعض أقسام اللغات فى بعض الجامعات الأفريقية. ومع زيادة انتشار الإسلام لاشك فى أن اللغة العربية لا تكسب أرضاً كما يقولون، بل بشراً جدداً. وبصفة عامة من الواضح أنه من حيث المتكلمين بالعربية فى القارة الأفريقية ، فاللغة العربية هى أكثر اللغات انتشاراً فى القارة، ويكفى أنه يتكلمها واحد من كل خمسة أفريقيين. غير أن الخطر هو انسحاب الأبجدية العربية، فقد انسحبت الأبجدية العربية من السواحيلية، وكذلك الصومالية بعد أن ترددت طويلا ثم اختارت الحرف اللاتينى.

وقد نتج عن هذا التعدد اللغوى – حتى فى داخل الدولة الواحدة

بصورة معقدة كما رأينا -ما يأتى :

-وجد ما يعرف باللغات الرئيسية واللغة الأم واللغة الثانية واللغة الرسمية ولغات التفاهم المشترك؛ ففى السنغال على سبيل المثال ١٠ لغات منها ٨ لغات رئيسية واللغة الأم يتكلمها ٤٢٪ من السكان وهى الولوف، تستخدم بوصفها لغة ثانية لدى ٤٠٪ من السكان، وهى لغة التفاهم المشترك، واللغة الرسمية هى الفرنسية (انظر الشرائح المصورة لبقية الدول الأفريقية)، ولذلك فإن ظاهرة ثنائية اللسان أو ثلاثية اللسان معروفة فى إفريقية.

-وجدت لغات جديدة نتيجة اختلاط اللغات المحلية فى جنوب الصحراء بلغات أخرى، وقد نشأت نتيجة تزايد الفجوة بين أناس لا يستطيعون التفاهم بعضهم مع البعض بدونها، ويطلق عليها رطانة **Pidgin** أو كريول **Creole*** (٩).

هكذا تتعدد الألسنة فى الدولة الواحدة، فتظهر الرطانات والكريول وتظهر لغات التفاهم المشترك التى تتعدى حدود الدولة، بحيث أصبحت

---

* كلمة كريول مشتقة من الكلمة البرتغالية Crioulo، ومعناها الأصلى هو الإنسان الذى هو من أصل أوربى وولد وتربى فى المستعمرات، ثم أطلق على المواطنين Natives، وعلى نوع اللغة المشتقة منها مثل E.P، F.P. إلخ، وإن فى الحقيقة تجمع بين أكثر من لغة (أصلية + دخيلة).
والرطانة عادة ما تكون مفرداتها قليلة (٧٠٠ــ٥٠٠ كلمة) أساسها S.P.F.P ، يضاف إليها بعض الكلمات من اللغات الوطنية فى بعض الأحيان، وتكون لغة مبسطة من اللغة الوطنية ومستعيرة بعض الألفاظ من لغات أخرى.
والرطانة ــ عادة ــ ليست هى اللغة الأصلية للفرد، أو اللغة الأم، بل تستخدم إلى جانب اللغة الأم. وعندما تتحول الرطانة إلى لغة أم لدى بعض الجماعات، يشار إليها حينئذ بأنها لغة الكريول، لأنها حينئذ لابد وأن تزيد مفرداتها لتقابل الحاجات اليومية لهذه الجماعات، وعادة ما تؤدى وظيفة أية لغة وإن تكن غير مكتوبة.
وتبين الخريطة الثنتين وعشرين رطانة؛ مثل أكو فى غينيا (إنجليزية) وأمبريكو (إنجليزية ساحل ليبيريا) ورطانة كرو (إنجليزية صانادى الأسماك فى ساحل إفريقية الغربى، وأوندو رطانة تجار ياوندى (فرنسية)، ورطانة براكون فى ساحل موزبيق (خليط سواحيلية / عربية / برتغالية) إلخ (١٠).
وإذا كان هذا النوع من الرطانات يتكلمه آلاف مؤلفة قد يبلغ المتكلمون به نصف المليون، فإن لغات التفاهم المشترك عن جدارة هى اللغات التى يتكلمها الملايين أبناء القارة الإفريقية، ممثلة فى السواحيلى فى شرقى القارة، والهوسا فى غرب القارة، وترجع أهميتهما لنا العرب إلى أن تأثير اللغة العربية فيهما كبير.

الدولة غابة مصغرة من الغابة القارية الكبرى، يهمنا منها ما يتصل باللغة العربية مثل السواحيلى والهوسا.

لغات التفاهم المشترك المتأثرة باللغة العربية

(١)السواحيلى

السواحيلى هى إحدى اللغات الرئيسية فى العالم، أو لنقل إنها إحدى اللغات المليونية. واللفظ السواحيلى مشتق من اللفظ العربى، والسواحل جمع ساحل، ومعناها هنا سكان السواحل، ويقصد بها السواحل الشرقية لإفريقية، ويستخدم اللفظ عامة لكل سكان هذه السواحل، وهم خليط من الأفريقيين والعرب والإيرانيين. ويرجع هذا إلى موقع هذا الجزء مطلا على المحيط الهندى ومقابلا للسواحل الجنوبية لشبه جزيرة العرب والخليج العربى، ومن ثم نشطت الاتصالات بين الجانبين نتيجة تضافر الظروف الجغرافية فى هذه المنطقة من المحيط الهندى؛ ولذلك كانت السواحيلية لغة من لغات البانتو الأفريقية، ولكنها استعارت كثيراً من ألفاظ اللغات الأخرى وأهمها العربية والفارسية. وترجع أهميتها إلى أنها أهم لغات شرقى إفريقية؛ إذ يتكلمها أكثر من خمسة ملايين نسمة بوصفها اللغة الأم، فضلاً عما يزيد عن اثنى عشر مليوناً آخرين يتكلمونها بوصفها لغة ثانية، إلى جانب لغاتهم الأصلية، وزادت أهميتها بعد الاستقلال، حيث أصبحت اللغة الرسمية الحكومية لتنزانيا وكينيا، ويمتد توزيعها الجغرافى ليشمل رواندا وبوروندى **Burundi,** **Rwanda** حتى شرق زائير، أما على الساحل فتمتد من جنوب الصومال إلى شمالى موزمبيق. ويمكن أن نضيف أيضاً أنها تفهم فى موانئ البحر الأحمر الجنوبية، وعلى طول سواحل شبه جزيرة العرب وعمان. لهذا الانتشار

الواسع كانت السواحيلية اللغة التى اتفقت حكومتا كينيا وتنزانيا على أن تكون اللغة الرسمية الوطنية البديلة عن اللغة الإنجليزية بعد خروج بريطانيا، وتستعمل بوصفها لغة للتدريس فى كل مدارس تنزانيا، ولها مناهجها فى جامعات كينيا وأوغندا.

ومن الواضح أن التجار فى المدن الساحلية كانوا أصحاب الفضل فى إدخال كثير من الألفاظ العربية بل والثقافة السواحيلية، لذلك كان الاقتراض من الأفكار العربية والأسلوب العربى يظهر أوضح ما يكون فى الفلكلور السواحيلى الذى ينتشر فى الحضر [١١].

وقد استعملت السواحيلية الحروف العربية فى كتابتها أول الأمر، وعلى الرغم من استعمال الحروف اللاتينية فى كتابتها الآن فإن الألفاظ العربية واضحة فيها مثل :

Adabu =	الأخلاق	=Adui	عدوى
Afya =	صحة - عافية	=Alfagiri	الفجر
=Arobini	أربعين	=Amali	عمل
=Baluri	بلور	=Boustani	بستانى
=Dawa	الدواء	=Elfa	ألف
=Adhuri	الظهر	=Ama	أما
=Askari	عسكرى	=Asybuth	الصبح
=Bata	بطة	=Bila	بدون (بلا)
=Chai	شاى	=Dakika	دقيقة
Edashra	إحدى عشر	=Faida	فائدة
=Farasi	فرس	=Ghali	غالٍ (مرتفع السعر)
=Hadithi	قصة	=Hakika	حقيقة

Ja=	أتى – جاء	Jaribu=	جرب
Juma=	جمعة	Kablaya=	قبلى
Kahowa=	قهوة	Kalamu=	قلم
Kata=	قطع	Kingereza=	إنجليزى
Kitabu=	كتاب	Laini=	لين – ناعم
Lazima=	ضرورى – لازم	Lugha=	لغة
Maana=	معنى	Safari=	رحلة
Labika=	لبيك	Salamu=	سلام

والدليل الطريف على اشتراك البانتوية والعربية معا فى السواحيلية أن كلمتى الشرق والغرب يعبر عنهما بكلمتى شرقى ومغاربى، فى حين أن الشمال والجنوب يعبر عنهما بكلمتى كسكازينى وكويستى (بانتوية)، وفى السواحيلية فى تنزانيا يعبر عن لفظ الاشتراكية بلفظ "أوجماعة" (عربية)، فى حين أن لفظ الرأسمالية يعبر عنه بلفظ "أوبى بارى" (بانتوية).

(٢)الهوسا

والهوسا – من ناحية الأصل– اسم لغة قبل أن تكون اسم قبيلة أو جماعة معينة، ثم أصبحت بعد ذلك علما على معظم سكان شمال نيچيريا وما جاورها من النيچر.

ومع ذلك لا يمكن فهم الانتشار الواسع للغة الهوسا فى غرب إفريقية إلا بفهم طبيعة الهوسا أنفسهم. فهم يعيشون على الزراعة المعتمدة على المطر فى المقام الأول. ولما كان هناك فصل جفاف طويل، فقد اتجه كثير منهم إلى حرفة التجارة، وقطعوا نتيجة لذلك مسافات طويلة حتى بلغوا

سواحل غرب إفريقية، فتجدهم فى غانا كما تجدهم فى بنين وكوت ديفوار وغيرها، يعيشون بوصفهم جماعات خاصة فى أحياء خاصة بهم يطلق عليها سابونجارى **Sabongari** فى إيبادن فى جنوبى نيچيريا. وتخصصوا فى تجارة سلع معينة كثمار الكولا، وتجارة الماشية، ومن هنا انتشرت لغتهم معهم أينما ساروا، [١٢] ولغتهم من أهم لغات غربى إفريقية بعامة، فهى اللغة الأم لما يتراوح بين ١٥و٢٠ مليون نسمة، بالإضافة إلى ١٥ مليونا آخرين ليسوا من الهوسا، ومع ذلك يتكلمونها رغبة من الإدارة الاستعمارية السابقة فى تنميتها بوصفها لغة تفاهم مشترك لكل الإقليم الشمالى من نيچيريا. وقد ترجمت هذه الرغبة إلى سياسة رسمية لهذا الجزء من البلاد، فقد جاء فى التقرير السنوى عن التعليم لعام ١٩٣٤ أن لغة التعليم فى نيچيريا هى الهوسا فى معظم القسم الشمالى، وحيثما كانت هناك لغة أخرى يبدأ بها، فإن الهوسا أيضاً يبدأ تعميمها بوصفها لغة، ولا تلبث أن تصبح لغة التعليم قبل نهاية العام. والمحصلة النهائية اليوم أن الهوسا أصبحت تنتشر انتشاراً واسعا فى أكثر من نصف مساحة نيچيريا، وفى كل الولايات الشمالية كانت هى اللغة الرسمية إلى جوار اللغة الإنجليزية حتى عام ١٩٦٦، بل والظاهرة اللغوية هناك هى ذلك العدد الكبير من غير النيجريين الذين يتكلمونها بطلاقة، فعليهم أن يجيدوها حتى يصبح فى إمكانهم العيش اقتصاديا واجتماعيا فى ذلك المحيط، فى حين لا توجد لغة فى الجنوب لا يتكلمها غير النيجريين.

ولا يمكن لأية لغة من لغات جنوب نيچيريا أن تحتل المكانة نفسها التى هى للهوسا فى الشمال، ويرجع هذا إلى أن الشمال كان يعتنق الإسلام قبل ظهور الأوربيين، وبطبيعة الحال لم يكن هناك مجال أمام البعثات التبشيرية لتعمل فى الشمال، ويتضح هذا فى بعض الألفاظ مثل :

Adali= العدل	Alada= العادة
Alama= علامة	Alhamis= الخميس
Alla= الله	Altajiri= التاجر
Albashiri= البشير	Alif= ألف
Arbain= أربعين	Hamsin= خمسين
Hosara= خسارة	In Shaalla= إن شاء الله
Jumaa= الجمعة	Zube= صب

معهد البحوث والدراسات العربية
INSTITUT DE LA RECHERCHE ET D'ETUDES
مكتب الدول العربية

التحديات التى تواجه اللغة العربية
فى إفريقية
منافسة اللغات الاوربية

وضعت القوى الاستعمارية موضوع اللغة فى مكانه الأسمى، لمعرفتهم بأن اللغة وسيلة لأهداف متعددة؛ أهمها ربط المستعمرات بالدولة المستعمرة حاضرا ومستقبلا ربطاً لغوياً، ومن ثم ربطها ربطا ثقافيا وفكريا، سياسيا واقتصاديا، وهذا واضح الآن، حتى بعد الخروج العسكرى وحصول هذه المستعمرات على استقلالها، فقد أصبحت لغاتها اللغات الرسمية، لغة التعامل فى الدواوين، ولغة التعامل مع العالم الخارجى، كما أنها لغة الثقافة.

وحين نأتى إلى موضوع اللغة فى المستعمرات، تأتى فرنسا فى المقدمة التى استماتت وتستميت فى سبيل نشر موضوع اللغة الفرنسية حتى بعد الاستقلال، ويتمثل فى منظمة الفرانكفونية (الصوت الفرنسى) التى هى فى الحق ليست منظمة ثقافية فحسب، بل سياسية أيضاً، فهى الكمنولث الفرنسى، تعويض عن قوة الإمبراطورية الفرنسية، فالسلاح هنا هو اللغة والثقافة الفرنسية، وقد قامت الخارجية الفرنسية بوضع ميثاق لها يقول بغير التباس: إن الهدف من المنظمة الجديدة هو تجميع الدول المتكلمة بالغة الفرنسية حتى تعمل معا فى مجالات تطوير الثقافة والتعليم، والعلوم والتكنولوجيا، إلى جانب آخر يجدر التعبير عنه بأسلوب شاعرى، وهو أن تكون المنظمة حارسا للغة الفرنسية،"إن الفرانكفونية ليست هى اللغة الفرنسية وحسب إذا لم نتوصل إلى الاقتناع بأن الانتماء إلى العالم الفرانكفونى، سياسيا واقتصاديا وثقافيا، يمثل إضافة، فإننا سنكون قد فشلنا فى العمل الذى بدأناه منذ سنوات" (فرانسوا ميتران) [١٣].

على سبيل المثال، عندما أحكمت فرنسا قبضتها على الجزائر، أخذت تدعم هذا الاتجاه عن طريق مجموعة من القوانين والأنظمة الفرنسية، فكان قانون يوليه ١٨٢٤ الذى يقضى بتحويل الجزائر من أرض محتلة إلى "ملكية فرنسية"، ثم أصدرت مرسوما آخر فى مارس ١٨٤٨ بأن الجزائر جزء لا يتجزأ من فرنسا، وتبع ذلك المقاومة من أغلب الجزائريين. وفى هذا الصدد، لابد من ذكر الشيخ عبد الحميد بن باديس (١٨٨٤ - ١٩٤٠) وجمعية علماء المسلمين (١٩٣١). وكان من ضمن الجهود الفرنسية لمواجهة هذا التيار العربى الإسلامى أن أصدر وزير داخليتها فى مارس ١٩٣٨ قراراً بمنع تعليم اللغة العربية فى الجزائر، ونص على أن اللغة العربية تعد لغة أجنبية، وقامت بتأسيس المدارس الرسمية الفرنسية لتحقيق مشروعها فى حرمان اللغة العربية من حق الوجود الرسمى، وكانت قبل ذلك قد مهدت الأرضية بتهميش جهاز التعليم الشعبى (الكتاتيب وتحفيظ القرآن)، وتحطيم جهاز القضاء، والاستيلاء على أراضى وأموال الأوقاف [١٤] (تجفيف المنابع)، ومن الوسائل الأخرى فى سبيل القضاء على الدين الإسلامى واللغة العربية، قام الفرنسيون بارتكاب مجزرة الكيكب (الساطور) بمدينة أبشيه فى تشاد عام ١٩١٧، حيث جمع المستعمر قرابة أربعمائة من علماء المسلمين من داخل المنطقة وخارجها، وقطع رءوسهم بالساطور؛ لأن كل واحد من هؤلاء كان مكتبة عربية كاملة، وكما قال **G.Villiard** (وهو مؤرخ وباحث اجتماعى فى المعهد الفرنسى لإفريقية السوداء): فإن "موت أحد العلماء الكبار هو فناء مكتبة كاملة". ولم تكن تلك الحادثة هى الوحيدة من نوعها، وإنما قام المستعمر بحوادث مماثلة أخرى قتل فيها العلماء، أشهرها مذبحة كانم عام

١٩٤٠، ومذبحة فاريا عام ١٩١٧، وغيرها، وقد راح ضحية هذه الحوادث آلاف الأبرياء من المسلمين [١٥].

ووقف مفتشو الأكاديمية الفرنسية للتعليم فى الجزائر ضد قرار إدخال اللغة العربية فى التعليم إلى جانب الفرنسية، وعللوا معارضتهم بكون اللغة العربية – فى زعمهم – ليست لغة واحدة، وإنما هى مجموعة من اللغات؛ اللغة العربية العامية، واللغة العربية القديمة (لغة القرآن الكريم ولغة التراث الإسلامى) أى اللغة العربية الفصحى **Classic**، واللغة العربية الحديثة، وهى لغة الصحافة ووسائل الإعلام. وقالوا: إن اللغة العربية العامية لا يمكن تدريسها فى المدارس لأنها لغة ليس لها ضوابط تضبط مفرداتها من قواعد نحوية وصرفية وغيرها، أما اللغة العربية القديمة (لغة القرآن والتراث) فهى لغة ميتة كاللاتينية ومن ثم فإنها ليست صالحة للتدريس فى المدارس، وأما اللغة العربية الحديثة **Modern** وهى لغة الجامعة العربية، فهى لغة أجنبية ولا يجوز تعليمها فى مدارس الدولة الفرنسية فى الجزائر؛ لأن هذا يتناقض مع القوانين الفرنسية التى تعد اللغة الفرنسية اللغة الوطنية والرسمية فى جميع أقاليم العالم الفرنسى. ولم تبدأ فرنسا فى إدخال اللغة العربية فى المدارس الابتدائية إلا عام ١٩٥٧؛ أى بعد قرن وسبعة وعشرين عاماً من دخول الاحتلال الفرنسى إلى الجزائر عام ١٨٣٠، وذلك بعد استفحال الثورة الجزائرية، فى محاولة منها لامتصاص الغضب[١٦].

وكان من آثار السياسة الجهنمية فصول الصراع الثقافى واللغوى التى استمرت ومازالت فى الجزائر، ورغم سياسة التعريب التى تبنتها حكومات الاستقلال وخاصة فى التعليم والصحافة والعلوم الاجتماعية؛ فإن

اللغة الفرنسية مازالت حتى اليوم مسيطرة على تدريس العلوم الأساسية والتقنية فى الجامعات (١٥ جامعة قائمة و ٢٠ جامعة فى طور التكوين) وعلى تسيير قطاعات الاقتصاد الوطنى الحساسة؛ مثل البنوك، وشركات التأمين، والصناعة، والعلاقات المالية والاقتصادية بين الجزائر والعالم الخارجى [١٧]. وهكذا خلقت فرنسا من يفكر بالفرنسية ويتكلم بالفرنسية، بل ومن يفكر بالفرنسية ويتكلم العربية، وهذا أخطر على الوحدة الوطنية من الذى يفكر بالعربية ويتكلم بالفرنسية.

إثارة نعرة اللغات المحلية

ومن الوسائل التى استخدمتها فرنسا أيضاً للقضاء على اللغة العربية تشجيع نعرة اللغات المحلية، حتى المندثرة كما هو الحال فى الأمازيغية فى المغرب العربى، التى أنشأت لها أكاديمية فى فرنسا عام ١٩٦٧. هذا على الرغم من أن اللغة البربرية التى يتكلم بها بعض سكان شمالى إفريقية وخاصة فى الجزائر والمغرب هى فى حقيقتها ليست لغة واحدة لكل القبائل البربرية، وإنما هى عدة لهجات يصل عددها إلى ١٢٠٠ لهجة [١٨]، وحاول البعض دمجها فى أربع لهجات رئيسية هى الشلحية، والأمازيغية، والتاريفت، ولهجة الطوارق المعروفة بالتفيناغ؛ وهى اللهجة الوحيدة المكتوبة، وهكذا ابتدعت فرنسا سياسة الظهير البربرى، ولا شك فى أن المآسى التى تعانيها الجزائر الآن هى محصلة ناجحة لجهود فرنسا فى هذا السبيل.

تشجيع العامية

وإذ وجدت القوى الاستعمارية أن العربية كاسحة ولابد منها، شجعت العامية **Colloquial** وحاربت الفصحى؛ لأن العامية تتعدد لهجاتها فتفرق، فى حين أن الفصحى توحد. ولعل التاريخ يعيد نفسه؛ فالدعوة إلى العامية بدلا من الفصحى بدأت فى كل من مصر وسوريا وبلاد المغرب على يد ويلكوكس، وعبد العزيز فهمى، وسلامة موسى، وأنيس فريحة، وغيرهم، وتصدى لهم نفر من ذوى الغيرة على العربية، وأوردوا الحجج التى تبطل هذه الدعوة؛ مها:

١. الدعوة إلى العامية تجرنا إلى مشكلة عملية مستعصية تتمثل فى السؤال الآتى: بأى العاميات نأخذ؟ إن عدد العاميات فى الوطن العربى بلغ المئات، وفى الوطن الواحد قد يبلغ العشرات.
٢. كيف يمكن ترجمة كل التراث الفقهى والأدبى والفلسفى إلى هذه العامية؟ أم يترك هذا التراث ويحول إلى المتاحف؟
٣. أن استخدام مستويين للغة (مستوى عامى وآخر فصيح) لا تنفرد به العربية فقط بقدر ما تشاركها فى ذلك الإنجليزية والفرنسية وغيرها، وفى حين يدعو المستشرقون إلى هذا، فإنهم فى بلادهم ترتفع أصواتهم بضرورة تعويد الناس على الفصحى والقضاء على اللهجات العامية، وفى الحق إن وجود مستويين للغة عامية وفصحى لا تنفرد به اللغة العربية فقط بل تشاركها فيه جميع اللغات كالإنجليزية والفرنسية والألمانية، وقد عهدت الجمعية الوطنية الفرنسية عام ١٧٩٤ إلى الأب جريجوار بأن يضع تقريراً عن الوسائل الناجحة

للقضاء على اللهجات العامية فى فرنسا وتشجيع الفصحى.

ومع ذلك، وعلى سبيل المثال، قد أصدر أحد الباحثين الفرنسيين فى تشاد كتاباً بعنوان "منهج العربية التشادية"، وتم العمل على وضع قواعد إملائية للعربية الدارجة، بل تم وضع معجم كبير للعامية، وحصل أحدهم (باتريس جوليان دى بمباول) على درجة الدكتوراه فى أطروحة عن العربية العامية التشادية، طبعت فى باريس عام ١٩٩٧.

وبطبيعة الحال كتبت العربية التشادية بحروف لاتينية، وبذلك تقصى العربية من دائرة الأهمية، ويصبح موضوع تطوير اللغة العامية موضوع الساعة.

والجدير بالذكر أيضاً أن مركز الدراسات من أجل التطوير والتنمية **CEFOD**، الذى يعد أكبر مركز للبحوث فى تشاد، بذل أكبر جهد فى سبيل نشر العامية التشادية وكتابتها بالحرف اللاتينى، حيث أنشأ قسما كاملاً لتدريس العامية التشادية، وألف لذلك منهجاً سماه **DAHYYIN** (هذا سهل) ووضع لها قواعد إملائية وصرفية مرسومة، ويتلقى الدارس خلاله ٢٠٠ ساعة، ليصبح بعدها قادراً على إجادة العامية حديثاً وقراءة وكتابة[١٩].

استخدام الحروف اللاتينى فى كتابة اللغات الإفريقية وتأليف الكتب التعليمية بها

لم ينجح الأوربيون فى تحويل معظم لغات القارة الإفريقية فحسب، بل لغات الشعوب الإسلامية التى كانت تكتب بالحروف العربية، إلى الحروف اللاتينية مثلما حدث فى السواحيلى والهوسا والتركية والإندونيسية والمالطية، والماليزية، والصومالية، بل بادرت بسرعة إلى اللغات الإفريقية

التى لم تصل إليها الحروف العربية، وقامت بالعمل نفسه. فقد كان متكلمو هذه اللغات يستعملون الحروف العربية فى مراسلاتهم الدينية والأدبية، كما شهدت بذلك الآلاف من المخطوطات.

كذلك تقرر فى أحد اجتماعات اليونسكو فى باماكو عام ١٩٧٦ كتابة اللغات الإفريقية بالحروف اللاتينية، ورغم خطورة هذا القرار وأبعاده المستقبلية، فإن الدول العربية والهيئات الدينية والإسلامية لم تقم بالجهد اللازم لمواجة ذلك، ولا شك فى أن هذا يزيد من تقوية الأواصر بين اللغات الأوربية واللغات الإفريقية [٢٠]، وفى الوقت نفسه يغير من نوعية العلاقة القائمة بين اللغة العربية واللغات غير العربية الإفريقية)، رغم ما كانت تمتاز به هذه العلاقة منذ قرون من تعايش وتكامل، فأصبحت علاقة صراع وتنافر.

ونتج عن النظام التعليمى الفرنسى فى المستعمرات الفرنسية كلها (سواء فى إفريقية أو فى غيرها) سياسة الاندماج أو الامتصاص **Assimilation**؛ أى التذويب الثقافى والقضاء على ما يربط الإفريقى بماضيه، وخاصة إذا كان المجتمع مسلماً ويعرف العربية، فمن مرحلة الحضانة إلى التعليم المتوسط والعالى ــ إن أمكن ــ يتم تعليم الطالب اللغة الفرنسية وتاريخ فرنسا وجغرافيتها وأنظمتها ومسرحيات راسين وموليير وأشعار كلوديل؛ أى لا تختلف دراسته عما يتعلمه الطالب فى فرنسا، والإصرار على أن كل موظفى الإدارة فى المستعمرة يجب أن يكونوا متخرجين فى مدارس فرنسية، وهذا معناه أن التعليم الفرنسى لا التعليم العربى هو الذى يصل بالإنسان إلى الوظائف الرئيسية (هذا النظام نفسه اتبعته البرتغال فى موزبيق وأنجولا وغينيا وبساوو).

ولعل الأثر السيئ لهذا الوضع هو وجود جيل منقسم؛ بعضه يفكر بالفرنسية ويسير على منوالها بمستحسناته وبمستقبحاته، ومن ثم ينطلق بالفرنسية إلى جوار جيل حصل على الثقافة العربية، وهو مما جعل التحاور بينهما غير موجود أصلا، وخلق صراعاً بين أبناء الوطن الواحد، أنصار العربية، وأنصار الفرنسية، وخاصة أن أنصار الفرنسية احتلوا مركز الصدارة فى الأجهزة الإدارية.

وإذا ضربنا مثلاً بالسياسة الإنجليزية فى جنوب السودان، وهى التى عرفت باسم السياسة الجنوبية، لوجدنا اللغة الإنجليزية لا اللغة العربية هى لغة التعليم فى المدارس. وفى البداية كان رأى رجال بعض الإرساليات التبشيرية أن تكون العربية لغة التعليم، وعلى الرغم مما يبدو من غرابة هذا الموقف فقد كانت له أسبابه. من هذه الأسباب أن رجال الإرساليات قد وجدوا العربية "لغة تفاهم **Franca Lingua**" يمكن استخدامها فى التعليم بدون تجشم متاعب خلق لغة عامة جديدة، ومنها أيضاً ما اعتقده رجال الإرساليات أن التعليم بالعربية سيتضمن إقبال الجنوبيين على مدارسهم، اعتقادا منهم أن التعليم بهذه اللغة سيتيح لهم فرصا كبرى للالتحاق بالوظائف الحكومية، حيث كانت العربية حتى ذلك الحين اللغة الأكثر استخداما فى إدارات الحكومة، غير أن هذه الحسابات المنطقية التى وضعها المبشرون فى حسبانهم كانت دون الحسابات السياسية التى وضعتها حكومة السودان فى خطتها.

يجىء موقف حاكم عام السودان السير وينجت مدفوعاً بهذه الحسابات الأخيرة ضد رغبة المبشرين؛ حيث كتب إلى حاكم مديرية بحر الغزال فى أواخر عام ١٩١٠ يطلب منه أن تكون الإنجليزية لا العربية لغة

التعليم فى مدارس الإرساليات فى الجنوب، ويعرب عن أمله أنـــه إذا كـــان تعليم الإنجليزية واستخدامها سوف يبدآن بهدوء؛ فإن هذه الأمنية يمكـــن أن تصبح عملاً مستكملا قبل أن يتحقق أحد من أن تغييراً قد تم.

وقامت السياسة البريطانية على ما يأتى :

١. محاربة اللغة العربية وتشجيع اســـتخدام اللغـــة الإنجليزيـــة محلـــها بالتدريج، لتستعمل فى حالة صعوبة استعمال اللهجات المحلية.

٢. تشجيع الموظفين فى المديريات الجنوبية على تعلم اللهجات المحليـــة، وبذل كل جهد فى هذا الشأن بنشر بعض المجموعات اللغوية المحليـــة لتيسير اللغة. وكان هناك ضغط على الموظفين البريطانيين العـــاملين فى جنوب السودان لبذل كل الجهود لتعلم لغات أهالى المناطق التـــى يعملون بها وعاداتهم. وكان هذا ــ كما سبقت الإشارة ــ يمثل جانباً من المخطط العام الذى يهدف إلى إحلال لغات بديلة عـــن العربيـــة، كالإنجليزية، أما اللغات المحلية فيتعلمها الحكام الإنجليز.

٣. فى عام ١٩٣١ تم طبع خمسة آلاف نسخة من كتيب يحتـــوى مائـــة صورة لأشياء شائعة وأسمائها بالإنجليزية، كما تم طبع عدد ممـــاثل من النسخ يضم مائتى كلمة إنجليزية وما يقابلها مـــن ١٢ لغـــة مـــن اللغات الجنوبية، كما تم طبع كتب بلغة الدنكا، والباريا، واللوتوكـــو، والزاندى، وغيرها[٢١].

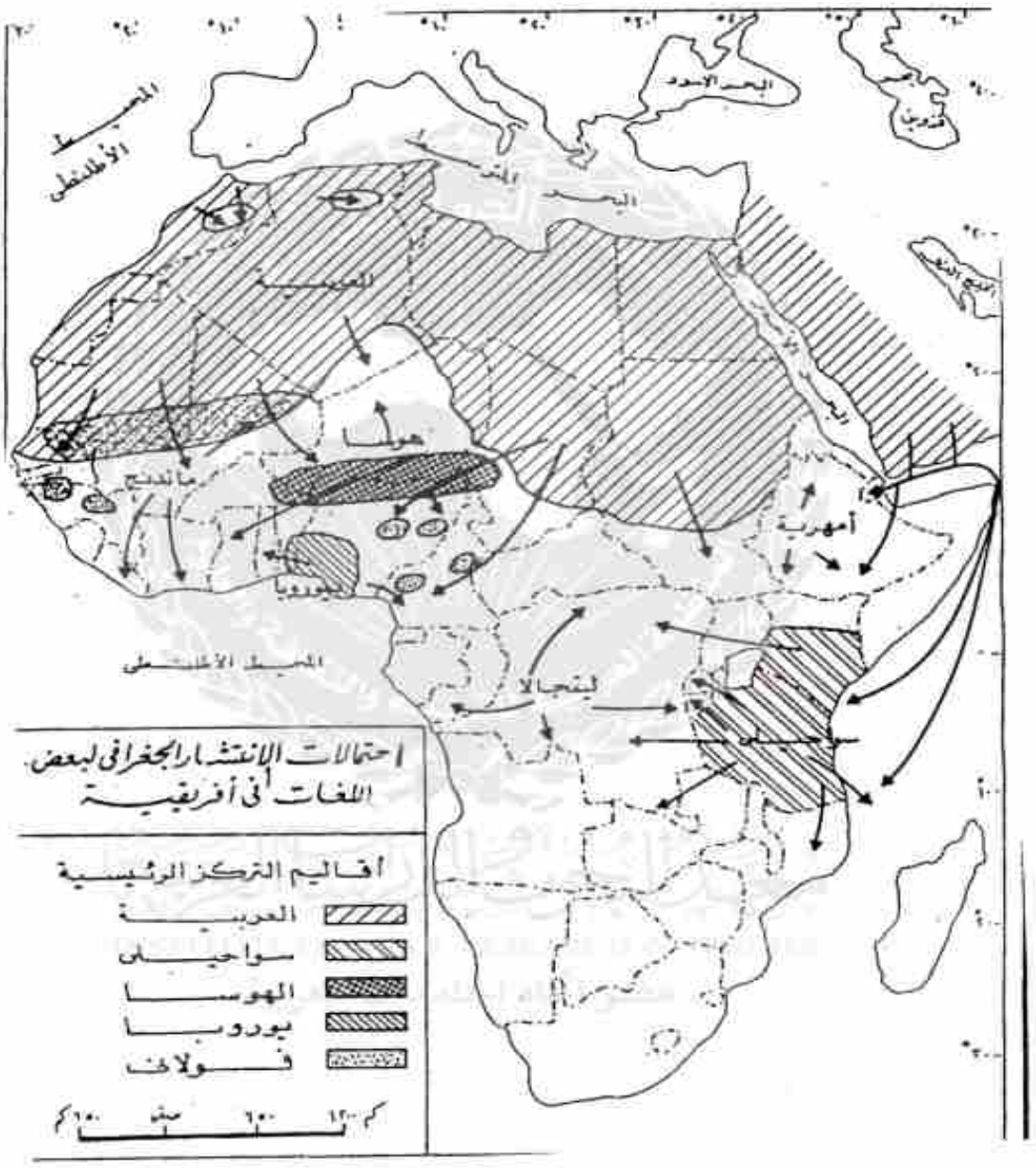
المحيط الأطلنطي
البحر الأحمر
الخليج العربي
هوسا
مانديغ
يوروبا
أمهرية
لينجالا
المحيط الأطلنطي
احتمالات الانتشار الجغرافي لبعض اللغات في أفريقية
أقاليم التركز الرئيسية
العربية
سواحيلي
الهوسا
يوروبا
فولاف
كم ١٢٠٠ ٦٠٠ صفر ٦٠٠ كم

نظرة استراتيچية

لابد من نظرة استراتيچية، وهذه النظرة الاستراتيچية لا يمكن أن تكون إيجابية المضمون والتحرك إلا إذا انطلقت من اعتماد على حقائق هى قائمة الآن وذات وجود فاعل فى الماضى والحاضر وفى الواقع المعيش، وفى مقدمة تلك الحقائق ما يأتى:

- أن اللغات الوطنية لغات قائمة بذاتها رغم طابعها الشفوى، وأن الأفارقة يتمسكون بها، بل إن الجماعات الإفريقية فى الدولة الواحدة لها حساسية شديدة إزاء استخدام لغة جماعة إفريقية أخرى، على أساس أن اللغة تعبر عن الهوية، وعلى أساس أن الروح القبلية سائدة، وخاصة أن الدراسات الأوربية قامت على أساس تثبيتها لا محوها، بل عملت على تطويرها، وتقع المنافسة الآن حول أى لغة من اللغات المحلية يقع عليها الاختيار إذا ما أريد اختيار لغة رسمية منها (نيچيريا).
- أن كتابة هذه اللغات بحروف لاتينية رغم ما يكتسبه هذا من خطورة بالنسبة للحروف العربية لا يمكن التراجع عنه الآن، وخاصة أن الدراسات الأوربية قد تمت، وأصبحت هناك مطبوعات بها، وإلغاؤها أمر محال، وقد يكون له انعكاسات خطيرة يمكن أن يستغلها أعداء اللغة العربية.
- أن الدول الإفريقية لديها من المشكلات المتعددة التى استنفدت طاقاتها اقتصاديا واجتماعيا وسياسياً، ما لا يسمح بطرق أبواب مشكلات جديدة.
- أن تتضافر جهود مراكز البحوث العربية ذات الاهتمام باللغات الإفريقية (قسم اللغات الإفريقية بمعهد الدراسات الإفريقية بجامعة القاهرة)، وقسم

اللغات والترجمة بجامعة الأزهر، ومعهد الخرطوم الدولى للغات، فضلاً عن مراكز أبحاث اللغات الإفريقية فى الدول الإفريقية الأخرى، وتشترك فى هذا السبيل بطبيعة الحال المنظمة العربية للثقافة والعلوم، بهدف عمل معاجم عربية – إفريقية، ليس لكل اللغات الإفريقية فى أول الأمر، بل للغات الرئيسية كاللينجالا فى زائير، والجاندا فى أوغندا، والماندينج فى غينيا وشمالى كوت ديفوار وجنوبى مالى وبوركينا فاسو، والزولو فى جنوب إفريقية، والصومالية فى الصومال وجنوبى إثيوبيا. هذه أمثلة لا على سبيل الحصر. وبطبيعة الحال فإن هذا يقتضى تخطيطاً جاداً، والغرض الأساسى هو عمل تواصل بين اللغة العربية واللغات الإفريقية، مثلما هو موجود بين اللغات الإفريقية واللغات الأوربية.

- اعتماد أحدث أساليب تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها من الأفارقة، وتسخير الوسائل الجديدة، وهذا يقتضى بطبيعة الحال استقبال أكبر عدد من الأفارقة للتعلم فى المدارس العربية وجامعاتها [٢٢]، وذلك باستقدام هؤلاء إلى بلادنا من خلال المنح؛ لأن مثل هؤلاء الطلبة حين يرجعون إلى بلادهم سيكونون رأس الحربة التى توجه إلى اللغات الأوربية، فلا نترك الملعب للأوربيين ونجلس فى مقاعد المتفرجين نتحسر أسفا على ما جرى وما سيجرى.
- هل يمكن أن تقام فى الدول الإفريقية مراكز ثقافية، تكون من مهماتها الرئيسية افتتاح فصول لتعليم اللغة العربية، على غرار المراكز الثقافية التى تنشئها الدول الأوربية وترعاها؟
- إذا كانت الأمور الاقتصادية تتدخل أحيانا لتكون عائقاً، أود أن ألفت

النظر إلى أن وزارات التربية والتعليم فى الدول العربية أحيانا ما تغير مناهجها وكتبها، فماذا نفعل بالكتب التى لا تستخدم وهى جديدة؟ ماذا يُفعل بها؟ يلقى بها إلى مفارم الورق. كذلك الأمر فى الصحف و المجلات التى ترجع بدون تصريف؟ أليس الأولى بها أن تصل إلى هذه الدول والهيئات المعنية باللغة العربية والأفراد فى الدول الإفريقية؟ ومن ثم يقتصر الأمر على تكاليف النقل فقط إلى هذه الدول، ويترتب على هذا أن تنشر هذه الوسائل التعليمية والإعلامية باللغة العربية.

أود التأكيد على موضوع المطبوعات الفائضة فى الدول العربية؛ لأن دول إقليم الساحل والصحراء، التى تنتشر فيها اللغة العربية لدى معظم سكانها ــ على سبيل المثال ــ تعد من أقل الدول نموا، وأحوالها الاقتصادية تثير الشفقة، ويكفى أن نضرب مثالا لذلك أن المدارس العربية فى تشاد تتفاوت مناهجها وتتباين كتبها بحسب الدولة المانحة، فهذه تتبع المناهج الليبية، وتلك تتبع المناهج المصرية وهكذا. أما من منسق؟

الدين الإسلامى

لا شك فى أن للدين الإسلامى أثراً كبيراً فى انتشار اللغة العربية؛ لأنها لغة القرآن الكريم والأحاديث والسنة، ويكفى القول بأن اللغة العربية لم تختف كغيرها من اللغات كاللاتينية، بفضل القرآن الكريم، فهو الحافظ لها، على عكس اللاتينية التى اندثرت، وقد كانا معا فى فترة ما اللغتين العالميتين الوحيدتين فى العصور الوسطى.

لا شك فى أن التأثير الدينى كان أقوى التأثيرات العربية فى العالم، وخصوصاً فى القارة الإفريقية؛ فالأفارقة الذين تحولوا إلى الإسلام أكثر من

هؤلاء الذين تـــولوا إلى اللغة العربية أو الذين صاهروا العربية، وينطـــبق هذا أيضا على غيرهم فى القارات الأخرى.

وفى التوزيع الجغرافى للإسلام نجده بصورة عامة على هيئة هـــلال مقلوب فى الشمال وجناحيه الشرقى والغربى فى النصف الشمالى من القارة. ثم يصير باهتا بالاتجاه نحو الهضبة الجنوبية، ورغم ذلك فقد افتتح الرئيـــس بنانا (رئيس زيمبابوى) مؤتمراً إسلاميا فى هرارى فى مايو ١٩٨٣، وكـــان أعضاء المؤتمر من مسلمى إفريقية الجنوبية. وفى الغرب الإفريقـــى نجـد نيچيريا تمثل معملا يتفاعل فيه ثلاثى التراث الحديث (الإفريقى والإســلامى والأوربى الغربى).

ولئن كانت تقديرات عدد المسلمين فى نيچيريا تختلف اختلافاً بينـــا، فأحياناً يقدرونهم بنحو ثلث عدد السكان، وفى أحيان أخرى يقدرونهم بمعظـم السكان. وقد أعاد المؤتمر الإسلامى تصنيف نيچيريا من دولة بها مســـلمون إلى دولة إسلامية، وذلك لارتفاع عدد السكان المسلمين فى نيچيريا وخاصـــة فى الشمال والغرب. وفى جميع الانتخابات منذ الاستقلال نجد أن للمســـلمين دوراً بارزا فى الحكومات الفيدرالية. كما فاق عدد مســـلمى نيچيريـــا مـــن الحجاج عدد مسلمى باكستان عام ١٩٨٩. وإذا كانت الأعداد قد انخفضـــت بعد ذلك، فيرجع هذا إلى القيود التى وضعت على الحج لتوفير العملة الصعبة بعد الأزمات المالية التى وقعت فيها البلاد نتيجة انخفاض أسعار البترول[٢٣]. وتكتب صحفية **The New Nigeria** التاريخ علـــى كـــل طبعـــة بـــالميلادى والهجرى معا. وفى توزيع المسلمين نجد أن نصف اليوروبا مسلمون، وكذلك معظم الفولانى والهوسا. ومن هنا يمكن القول بأنه لو كانت نيچيريا تقتصـــر

على الجماعات الثلاث الكبرى؛ الهوسا والفولانى واليوروبا لكان ثلثا سكان البلاد من المسلمين، وفى الحق كان لكثرة الأقليات الصغيرة الحجم أثرها فى تقليل النسبة الخاصة بالمسلمين، حتى أن هذه الأقليات يخترقها. الإسلام يخترقها. وفى الحق إن الاستعمار الأوربى فشل فى وقف انتشار الإسلام فى غربى إفريقية، وإن كان قد أضعف من قوة اندفاع الإسلام فى بعض الأجزاء، فنجد أن ٨٠٪ من سكان السنغال مسلمون، وهم أكثر من ٥٠٪ فى سيراليون، و ٢٠٪ فى كوت ديفوار، وفى غينيا أكثر من ٩٠٪، وفى مالى أكثر من ٨٠٪، وفى الكاميرون أكثر من ٤٠٪ ، و فى النيجر ٩٠٪ ، ونحو ٩٠٪ فى تشاد، بحيث يمكن القول إن قلب الإسلام فى إفريقيا السمراء هو فى غربى القارة.

هذا على عكس الحال فى شرقى إفريقية باستثناء الصومال ووادى النيل، فالاستعمار كان أكثر نجاحاً فى وقف انتشار الإسلام، ولهذا يمثل المسلمون فى أوغندا وكينيا ورواندا وبوروندى و زائير أقلية، وإن كانت أحياناً مؤثرة (عيدى أمين فى أوغندا).

وفى تنزانيا يتفوق عدد المسلمين على عدد المسيحيين، وإن كانت هناك أعداد كثيرة من الجماعات الإفريقية مازالت على معتقداتها التقليدية، أما الصومال فإنها ــ ولا شك ــ دولة إسلامية، كما يمثل المسلمون فى إثيوبيا وإريتريا حوالى ٥٠٪، وإن كانت الطبقة المسيطرة على طول تاريخها من الأمهرة الأقباط الأرثوذكس، ويتركز الإسلام هنا بصفة خاصة فى الأوجادين وإريتريا، وفى وادى النيل نجد أن الإسلام هو الغالب ما عدا الجنوب، حيث عمل الاستعمار الإنجليزى على إيقافه (جنوب السودان)، ومع

ذلك تسلل ومعه العربية، وكان يمكن ــ لو سارت الأمـــور طبيعيـــة ــ ألا توجد مشكلة اليوم بالنسبة للإسلام والعربية، وعلى الرغم من هـــذا فـــهناك رطانة عربية فى جنوب السودان. أما فى زائير فتأثير الإسلام واللغة ضئيل، إلا فى بعض الأطراف الشرقية، كما أن الإسلام فى جنـــوب إفريقيـــة ديـــن الملونين الهنود وملايو الكاب.

بعد هذا العرض أرى أن الجهود التى تبذل فى سبيل نشر العربية من المرجح أن تكون أكثر نجاحاً فى دول الصحراء وإفريقية الغربية بوجه عام، ومن ثم فإن دول الصحراء وغربى إفريقية وشرقيها مرشحة ــ قبل غيرهـــا بالدرجة الأولى ــ لزحف اللغة العربية واكتساب بشر جدد، بشرط أن تكـــون الخطط جادة، وأن تبتعد عن السياسة والعلاقات السياسية[٢٤].

لقد اعتدنا فى عالمنا العربى أننا كلما واجهنا مشكلة، نعلقـــها علـــى مشجب الاستعمار؛ أى فى رقبة الآخرين، حتى يرتاح البـــال، لأن نظريـــة المؤامرة الخارجية نظرية مريحة. أما آن الوقت لنعترف بالتقصير، ونفعـــل على الأقل مثلما فعل الآخرون؟

الهوامش

1. David Crystal (ed): The Cambridge Encyclopedia of Language, Cambridge un,. p.1989,p126.

2. Ibid., p.22.

3. A. Coupez, The Languages, of Africa, an Annotated Map, The courier, no.119, Jan, Feb, 1990,p.49.

4. Ibid., p.48.

٥. محمد عبد الغنى سعودى: قضايا أفريقية ، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٨٠، ص ١٣٩.

UENSCO The Courier, Loosers and Winners, April 2000,pp.20,22.

٦. محمد عبد الغنى سعودى : شخصية الصومال فى المسح الشامل لجمهورية الصومال (محمد عبد الغنى سعودى ــ محرر)، المنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة، ١٩٨٤.

7. Jocelyn Murray (ed): Cultural Atlas of Africa, Phaidon - Oxford, 1981,pp.25,28.

٨. محمد عبد الغنى سعودى : قضايا أفريقية، مرجع سابق، ص ١٣٧.
ولمزيد من التفاصيل الخاصة بالتعدد اللغوى فى الدول الإفريقية ونتائجه، انظر :

- Ayo Banjo: Language Policy in Nigeria, in : David Smock, Kwana a Bentsi: The Search for National Integration in Africa, London, 1976.
- Bernard Fonlon : The Language Policy in Cameroon, Comparative Education, Feb, 1969. Vol. 5, no, 1969, pp.27-40.
- Charles Fombad: Freedom of Expression in the Comeroonian Democratic Transition, Jour. Mod. Af. St., vol. 33,2pp. 11-26.

9. David Crystal, op.cit., p.336.

١٠. .. وعن محاولة الارتقاء بارطانة فى نيجيريا، انظر :

- Tke, S., Ndolo, The Case for Promoting the Nigerian Pidgin Language, Jour. Mod, Af. ST., vol. 27,4,1989,pp.679-84.

١١. محمد عبد الغنى سعودى: قضايا أفريقية، مرجع سابق، ص ١٤٧.

- Marina, Tolmachera: The Arabic Influence on Swahili Literature: A Historian View, Jour. Mod, Af. St.vol.5, no.2, 1978.pp.222-231

- **Austin Sheton, Some Problems of Intercommunication, Jour. Mod.Af. St., vol.2,3,1964, pp.395-403.**

12. Seoudy, M. A.: Some Aspects of Labour Migration in West Africa, B.S. Yeoy, d'Egypt TX 111,1970/7,pp.7-9

١٣. بنسالم حميش: الفرانكفونية والفرنسية، المستقبل العربى، ع٢٠٠، مـــايو ٢٠٠٠، ص ص ٣٣ ــ ٤٥.

١٤. ساجد أحمد عبل : الشيخ عبد الرحميد بن باديس، الوعى القومى العربى، ع ٢٥، إبريل ٢٠٠٠، ص ٦٢.

١٥. على محمد قمر: التحديات التى تواجه اللغة العربية فى تشاد، ندوة اللغة العربيـــة فى تشاد ٢١ ــ ٢٤ يناير ٢٠٠١.

١٦. المرجع السابق.

١٧. عبد الحميد عبدوس: الصراع اللغوى والتعريب فى الجزائر، مقابلة مـــع تركـــى رابح عمامرة، المستقبل العربى، ع ٢٣٨، ديسمبر ١٩٩٨، ص ص ٩٣ ــ ٩٥.

١٨. انظر :

- عثمان سعدى : الأمازيغ البربر عرب عاربة. وعروبـــة الشـــمال الأفريقـــى عـــبر التاريخ، مجلة العربى ع ٤٨٤، مارس ١٩٩٩.
- إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ، الدار البيضـــاء، دار الســـلمى، ١٩٦٥، ص ٢٧.

١٩. حقار محمد أحمد: من تحديات اللغة العربية فى تشاد، ندوة اللغة العربيـــــة فـــى تشاد، ٢١-٢٤ يناير ٢٠٠١.

٢٠. محمد مواعدة: الصلات الحضارية بين اللغة العربيـــة واللغـــات الوطنيـــة فـــى موريتانيا؛ ضرورة المحافظة على التعايش التكاملى، المســـتقبل العربـــى، ٦٨، أكتوبر ١٩٨٤، ص ص ١٠٩ ــ ١١٨.

٢١. يونان لبيب رزق و محمد عبد الغنى ســـعودى (محـــرران): مشـــكلة جنـــوب السودان، مركز دراسات الشرق الأوسط، جامعة عين شـــمس، ١٩٨١، ص ص ٩٨-٩٩، ١٢٦ – ١٣١.

٢٢. المرتضى الزين أحمد: أثر الخريجين التشاديين العائدين من الدول العربيـــة فـــى المجتمع التشادى، ندوة اللغة العربية فى تشاد، ٢١-٢٤ يناير ٢٠٠١.

23. Ali Mazrui: The Semitic Impact on Black Africa. Arab and Jewish Cultural Influences, Issue, vol.X 111, 1984. pp. 3,4

24. Ali Mazrui, ibid. p.4.